

الفصل السابع والعشرون

عرب الأندلس

الأمويون

٣٠٠ - ٨٣٦٦ ، ٩١٢ - ٩٧٦ م

عبد الرحمن الثالث (الناصر) - الحكم الثاني (المستنصر)

ولاية عبد الرحمن الثالث - قمع الثوار - الحروب مع قبائل
النصارى - تلقيه بأمر المؤمنين - ثورة الجلائفة - إدخال الصقابة
في الجيش - موقعة الخندق - القبائل تطلب الصلح - مد الحدود
إلى إبرو - الحرب في أفريقيا - استئناف الحرب مع الجلائفة -
طرده سانكو - سانكو يستنجد بعبد الرحمن - ليون -
قشتالة - نافارا - وفاة عبد الرحمن - أخلاقه - ولاية الحكم
الثاني - حكمه - انتصاره على الجلائفة وأهل نافارا - غزو
أفريقيا - حب الحكم للعلم - قرطبة - عظمة قرطبة -
حدودها - الزهراء - الفروسية

توفي الأمير عبد الله خلفه حفيده عبد الرحمن^(١) غير متجاوز الثانية
والعشرين من عمره ، وكان قد ولي الملك برغم وجود أعمامه وأقاربه وهم أكبر
منه سنًا وأكثر خبرة ، ففرحوا به واتخذوه فالًا حسنًا . ويقول المؤرخون^(٢)

عبد الرحمن
الثالث (الناصر)
لدين الله (

(١) يقول ابن الأثير : إن أباه محمد قتل بأمر عبد الله ، وكان ابنه محمد لم يكن قد
جاوز الثلاثة أسابيع من عمره ، غير أن جده الكهل اعتنى بتربيته اعتناء كبيراً ليموض
الطفل الصغير من القسوة التي عومل بها أبوه .

(٢) وفي ذلك يقول ابن عبد ربه صاحب المقد الفريد :

بدا الهلال جديداً والملك غض جديداً
بانعمة الله زدي إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت لله عيد

(المرب)

إن أهله توسموا فيه آيات العظمة والبطولة ، ورأوا فيه خير ناهض بالإمبراطورية
الأموية المزعزعة الأركان .

السياسة
الرشيدة

فاعتزم أن يتخلى عن سياسة المسالمة والتردد التي اتبعها أجداده ، واتخذ
لنفسه خطة جريئة حازمة في معاملة الثائرين والعصاة ، ولم يرض أن يسلك في
ذلك سبيلا وسطاً ، بل أعلن لجميع الثائرين الأسبانيين والبربر والعرب أنه لا يقنع
منهم بالجزية بل يريد الاستيلاء على حصونهم ومدنهم ، فإذا قدموا خضوعهم
عفا عنهم ، وإذا أبوا تعقبهم واشتد في عقابهم ، فأذنت معظم المدن الخطيرة من
تلقاء نفسها .

وفي نيسان سنة ٩١٣ م ظهر عبد الرحمن في الجيش فأنار ظهور الأمير الفتى
في صفوفهم حماسة شديدة ، وبالأخص عند ما علموا أنه لا يرغب في مشاطرتهم
الانتصارات فحسب ، بل أقدم على مشاطرتهم الآلام والمشاق ، وقد أثر هذا
العمل الجيد أيما تأثير في معنوية الجنود ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى أخضع
عبد الرحمن ولاية ألبيرا وجيان ، ثم استولى على أمّنع المعافل وأباد اللصوص والعصاة
في هاتيك المناطق ، كذلك كان نجاحه في جبال سيارا نقادا الشاخنة لا يقل عن
نجاحه في السهول المنبسطة ، وكان يفرق شمل العصاة أو يقتل زعماءهم ، وما هي
إلا لحظة حتى عرض محمد بن إبراهيم بن حجاج الذي خلف أباه في ولاية أشبيلية
طاعته . وقد بدأ أهلها في بادي الأمر يدافعون عن المدينة ، ولكن بعد أن
حاصرها عبد الرحمن مدة قصيرة سقطت في قبضته ، ثم سار الأمير لقتال الثوار
في سيارا دي ريجيو (يسمىها العرب ريه) ، وأخضع زعماءهم ، وألقى المسيحيون
الأسبانيون الذين كانوا أشد أعداء الملك سلاحهم متأثرين بكرم الأمير وحزمه ؛
ويقول أحد المؤرخين المسيحيين « ومهما يقل عن تصرف الحكومة فإنها أبدت
تسامحاً وكرماً في معاملة النصارى »^(١) . وتوفي ابن حفصون سنة ٩١٧ م ، غير أن

الاستيلاء
على يبشتر

الحرب لم تنته بوفاته إذ ظل الأمير محتفظاً بجيشه الكبير في سلسلة تلك الجبال لمدة عشر سنوات كاملة . وفي سنة ٩٢٨ استولى الأمير على يبشتر وبعض القلاع الأخرى ودمرها تدميراً ، وقدم الأسراء في الغرب طاعتهم كذلك ، ولما اطمأن الأمير إلى الأحوال في الجنوب سير جيوشه على الثائرين في الولايات الشمالية والشرقية ، ثم استولى على بطليوس بعد حصار دام أكثر من سنة . وكانت طليطة قد ثارت مرة أخرى بتحريض من زعيم قبائل ليون المسيحي ، فأرسل الأمير إلى تلك البلدة الثائرة المتصلبة وفدأ من العلماء يدعوهم إلى الطاعة والولاء فرفضوا إجابة طلبه بإباء معتمدين على مساعدة الليونيين ، ولما وجد الأمير أنه ليس ثمة ما يفيد مع أهل المدينة سوى القوة ، اتخذ على الفور إجراءات حازمة وجدّ في حصارها مدى عامين ، فلما كادت تنفذ مواردها سلمت دون قيد أو شرط وأخيراً استأصل عبد الرحمن بذور الفتن وأصبح أمير البلاد دون منازع .

ولكنه لم ينس في أثناء انهماكه في إخضاع الثوار داخل المملكة أن ينتهز الفرص لمقاتلة عدوين ، كان هو على يقين من عدوانهما وسوء نياتهما نحو الأندلس : أولهما الوطنيون المسيحيون أو قبائل الشمال ، وثانيهما الفاطميون في أفريقيا .

وفي أواسط القرن الثامن عصف بأسبانيا قط مخيف دام خمس سنوات ، وهاجر بسببه كثيرون إلى أفريقيا ومعظمهم من العرب الذين كانوا قد استوطنوا تلك الجهات عقب الفتح الإسلامي .

نصارى الشمال

فاتhez الثوار من أهالي جليقية هذه السانحة وثاروا على الأمير ، ثم فتكوا بجمع غفير من بقي حيا من العرب وانتخبوا الفونسو زعيماً أو ملكاً عليهم ، ولم تكد تمضي بضع سنوات حتى استوحش البربر لفقد مواطنهم ، ولا سيما أنهم أصبحوا الآن قلة في تلك الأصقاع ، فأخلوا عدة مدن مهمة مثل استورقة وليون وسموره (زاموره) وشلنقه وأسقوبيه وميرانده ، ولم يحاول الفونسو مع ذلك الاستيلاء

على البلاد المهجورة ، فاكثى بقتل من بقى فيها من المسلمين القلائل ثم ارتد إلى جباله . واتهم من خلفه من أسراء ليون فرصة الحروب الداخلية التي كانت تمزق أوصال الدولة الإسلامية ليجعل بها مقاطعة ليون حاضرة دولتهم . وفى منتصف القرن التاسع لما فاضت الأندلس بالثورات الداخلية دفعوا حدودهم إلى نهر دورو وأنشأوا هناك أربع قلاع منيعة كانوا يتخذونها قاعدة للإغارة على الحدود الإسلامية ومطاردة المسلمين المُزَلَّ بالسيف والنار ، وقد كانوا من الفقر والهمجية بحيث كانوا يتعاملون فى البيع والشراء بالمقايضة ، فكانوا لهذا ينظرون إلى ثروة الأندلس الوافرة وخيراتها الجزيلة بعين الطمع ويمدون بها فريسة سائفة يمكن التقامها ، وكانوا على الجلمة متعصبين قساة القلوب ، وكانوا كلما استولوا على مدينة من المدن قتلوا النساء والأطفال والشيوخ من غير ما شفقة ولا رحمة ، ولم يكونوا يعرفون قط معنى للتسامح الذى اشتهر به العرب فى معاملتهم للمسيحيين فأى مصير كان ستؤول إليه حالة المسلمين فيما إذا كان هؤلاء القوم القساة يحتلون تلك البلاد .

لقد كانوا يمتنون الحضارة العربية التى كان يهر ضياؤها أعينهم ، فكان على عبد الرحمن أن ينقذ مملكة الأندلس وحضارتها الزاهرة ، كذلك كان الأمير الشاب يفهم جيداً المهمة الملقاة على عاتقه ، ولقد عمل على ذلك بعزم لا يبل عن العزم الذى قمع به الثائرين فى داخل البلاد .

ولم يك عبد الرحمن بنوى محاربة نوار الشمال ، بل كان يفضل دوام الصلح بينه وبينهم غير أنهم اضطروه إلى الحرب . وفى سنة ٩١٤ م ثار الليونيون بقيادة زعيمهم أوردونو الثانى واجتاحوا مقاطعة ماردة ونهبوها وعاثوا فيها بالسيف والنار وأسرأوا وذبحوا سكانها ، ثم استولوا على قلعة ألينا وقتلوا جميع سكانها الذكور وسبوا النساء والأطفال ، ثم عبروا نهر الدورو مثقلين بالغنائم والأسرى .

واكتفى عبد الرحمن بالرغم من انهماكه فى محاربة الفاطميين فى أفريقيا

الإغارات
للتواصل

سنة ٩١٤ م

بارسال جيش بقيادة وزيره أحمد بن أبي عبيدة لمعاينة ملك ليون فهزم المسيحيين وغنم منهم غنائم كبيرة ، ولكنهم أصيبوا بهزيمة منكرة بالقرب من سانت استيفان ، فتشجع أردونو وحليفه سانكو (شأنجه ملك نافارا) فعاث في ضواحي ناجيرا وطليلة ، واستولى سانكو على منطقة فالتيرا . وفي العام التالي عاد أردونو فعاث في منطقة لافيرا وأحرق مدينتها وضياعاها ، فضج المسلمون من ذلك ، وعزم عبد الرحمن على أن يلقى درسا مهما كلفه الأمر على القبائل المسيحية لن ينسوه ؛ وفي تموز سنة ٩١٨ أرسل جيشا كبيرا بقيادة حاجبه « بدر » على الثوار الذين كانوا معتمدين في الجبال فهزمهم وألحق بهم خسائر فادحة .

انهزام أردونو

ولما تأكد عبد الرحمن أن أهل ليون لم تضعف شوكتهم سار في حزيران سنة ٩٢٠ على رأس جيشه فاستولى على أوسمه وسان استيفان وككونيا وعدة قلاع أخرى ، وبعد أن ترك حامية صغيرة في منطقة ليون سار إلى نافارا ، فألحق قائده محمد بن لوك بسانكو زعيم أهالي نافارا خسائر فادحة ، ولما لم يستطع سانكو صد جيوش الأمير بنفسه استنجد بأخيه زعيم الليونيين ، واعتمر المللكان عندئذ أن يوحد صفوفهما ويهاجما المسلمين واستعصما بالجبال الواقعة على الحدود وانقضا على الجيش الإسلامي حين مروره في مفاوز البرنية الضيقة وألقوا عليه من على الحجارة الضخمة والحصباء ، وشعر الجيش الإسلامي بالخطر المحدق به ، وحالما وصل بجيشه إلى جونكيرا حيث يتحول الممر إلى سهل متسع أمر جنوده بأن تمسكوا هناك ؛ ويقول دوزي : « إن النصارى ارتكبوا هنالك غلطة فاحشة ، فإنهم بدلا من البقاء في حى الجبال نزلوا إلى السهول وقبلوا محاربة المسلمين بجرأة دفموا ثمنها هزيمة منكرة ، وطاردهم المسلمون حتى أخفاهم ظلام الليل عن أعينهم وأسروا كثيرا من زعمائهم ومن بينهم أسقفان كانا يحاربان كجنديين » .

وبعد هذا النصر المبين لم يلق الأمير أية مقاومة فاقبحم نافارا وخرّب قلاعهم وحصونهم ، ووصل عاصمة ملكه على رأس جيشه المظفر في ٢٤ أيلول .

وفي سنة ٩٢١ م ثار من جديد أردونو وسانكو ، فانقضا فجأة على ناجيرا وفجورا وقتلا كل من فيها ، ومنهم كثير من العرب الذين ينتمون إلى أشهر الأسماء ؛ ولم يكن ثمة مناص من مجارة الرأي العام في طلب الانتقام ، ومع أن الأمير لم يكن يود إثارة الحروب إلا أن قلبه كان يفيض سخطاً لما يرتكبه المسيحيون من التدمير والسفك المستمرين في المقاطعات الشمالية ، فلم يصبر على انتظار فصل الربيع بل سار توّاً إلى ميدان القتال فدخل نافارا في العاشر من تموز ، وكان اسمه كافياً لإيقاء الرعب في قلوب المسيحيين ، ففر العدو عند اقترابه من قلاعهم وحصونهم ، وحاول سانكو عدة مرات صد الأمير عن زحفه ولكنه باء بالفشل والهزيمة ، وتوصل عبدالرحمن إلى ببلونه عاصمة سانكو التي فر سكانها رعباً منه ، فدمرها وخرّب قصور الملك والأمراء عقاباً لهم ، وبذا تم إخضاع زعيم البشكنس الذي أصبح بعد هذا عاجزاً عن أن يلحق بالمسلمين أذى ، ونال الأمير نجاحاً مماثلاً بالقرب من ليون ، وقد ساعدته الحروب الأهلية التي نشبت بين أبناء أردونو سنة ٩٢٥ على أن يوطد سلطته و يقيم الفتن والثورات داخل بلاده ؛ وهكذا استطاع أن يوطد الأمن في كافة أنحاء البلاد . وكان الأمراء الأمويون في الأندلس قد اكتفوا بلقب الأمير أو السلطان ويرون أن لقب الخليفة وأمير المؤمنين مقتصر على حامى الحرمين^(١) ، فلم يتخذوا سمة الخلافة مادام العباسيون يملكون مكة والمدينة وتقرأ الخطبة باسمهم فيهما ، ولكن الحوادث تغيرت تغيراً يذكر ، إذ أن دولة العباسيين دخلت في دور الانحلال وأصبح الخليفة الراضى أسيراً في قصر بني بويه ، واستولى المعز الفاطمي على الحرمين ، فرأى أمير قرطبة بطبيعة الحال أن الاحترام الذي كان يبديه أمويو أسبانيا نحو خلفاء بغداد في غير محله ، فأباح لنفسه عندئذ أن يتخذ سمة الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين ، وأجريت البيعة له في حفل حاشد يمثل جميع طبقات الأمة ، ولقب بالناصر لدين الله .

انقاد لقب
أمير المؤمنين

وفي سنة ٩٣٣ استولى رامير الثانى على ولاية ليون بعد أن سمل عيني أخيه الفونسو الرابع وعيّن عدد كبير من أقاربه ، وكان رامير يحمل حقداً بالغا على المسلمين ، وحالما استولى على السلطة بدأ يزحف على البلاد الإسلامية .

مجموع رامير

فسار عبد الرحمن في الحال على رأس جيشه لمقابلته ، وبذل جهداً كبيراً في سحبه إلى ميدان القتال ، ولكن رامير رأى من إصالة الرأي أن يظل وراء أسوار وشحه ، فترك الخليفة فرقة تراقب رامير في تلك المدينة ، وواصل سيره نحو الشمال حيث كان الليونيون والجلالة قد وحدوا صفوفهم ، وكان سانكو قد توفى واستولى ابنه كارسيا على نافارا تحت وصاية أمه تيودا التي كانت تحمل في قلبها بغضا نحو العرب لا يقل عن بغض رامير لهم ، فاكتمسح الخليفة قاعة ألبه ، وهدم قلاع الجلالة وحصونهم حتى أصبحت أطلالا دارة ، وأصبح رامير عديم الحول لا يستطيع أن يوقف العرب عن تدمير برغش أهم نقطة في تلك المعادل . وفي تلك المرحلة اكتسب مسيحيو الشمال حليفا عظيم القيمة في شخص حاكم سرقوسة الثائر (محمد بن هشام^(١)) الذي ثار على سيده لما لحق به من الحيف على زعمه . وهكذا أصبح الشمال كله ثائرا على عبد الرحمن وتخرج الموقف ، غير أنه عاجله بنشاطه المهود ، فحاصر سرقوسة محاصرة لاهوادة فيها حتى قدم الثائر طاعته فصفح عنه وأعادته إلى مركزه السابق ، ولكن رجال القبائل لم يعاملوا بنفس الرحمة التي عومل بها زعيمهم ، فاكتمسح الخليفة بلاد البشكنس ، وفرضت الجزية على المدن والقرى ؛ وبعد أن قاومت الملكة تيودا جيش الخليفة الذي أوقع بها الخسائر مرة تلو المرة طلبت بعد مدة قليلة الصالح فأجيبته إلى ذلك ، وتم للخليفة الاعتراف بسلطانه في نافارا ؛ وكان رامير قد لحقت به هزائم شديدة بحيث لم يجسر على مجابهة جيش الخليفة في ميدان القتال ، وتوارى فيما وراء التلال ، وفيما عدا ولاية ليون ، وقسم من كتالونيا التي كانت تابعة لفرنسا

(١) يسميه ابن خلدون هشام ويسميه دوزى هاشم .

أصبحت أسبانيا برمتها الآن تحت أقدام ملك قرطبة العظيم .

إدخال السلافين
في خدمة الدولة

أخذ عبد الرحمن نظراً لسخطه على الأرستقراطية العربية يمهّد بالمناصب إلى الأجانب ، وكان معظمهم من الأرقاء والماليك كالألمان والفرنجة والإيطاليين والإسكندناوين والروسيين وما إليهم ، ولما كان هؤلاء يؤتى بهم أطفالاً بواسطة تجار من البندقية وجنوه وبنزاً لبيعوا بيع الأرقاء لعرب أسبانيا ، فقد كانوا يعتنقون الإسلام ويتعلمون اللغة العربية بسهولة ويربون تربية راقية حتى كان يعهد إليهم بعد بأهم الوظائف ، وكان الناصر يحيط نفسه برهط منهم ، فأطلق عليهم اسم الصقالية أو السلافيين ، وقدم أم المناصب في الجيش والحكومة ، وكان الناصر يرغم أشرف العرب ورؤساء القبائل ذوي النفوذ والعصبية على الخضوع لهؤلاء الصقالية ، فأثارت هذه الحماة سخط القبائل العربية وأشرفها . وفي سنة ٩٣٩ ثار الجلالة وأهل البشكنس على الخليفة ، فحشد جيشه وتآهب لحاربهم ، ولكنه ارتكب خطأ فاحشاً إذ عهد بالقيادة إلى صقلبي اسمه «نجدة» ، فسخط عليه ضباط العرب وثار كبرياؤهم وتغيرت نفوسهم ، فأقسموا أن يتركوا الصقالية وحدهم عند نشوب المعركة الحاسمة ، وهنا تختلف الروايات اختلافاً بيناً في سبب موقعة الخندق وهزيمة جيش المسلمين ، فيقول المسمودي والقرى : « إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على زامورا (سموره) عاصمتها ، وكانت في غاية المناعة يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتسنى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصاته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماة ، وساد الاختلاف بين المسلمين ، فهزموا هزيمة شديدة (حتى قدر بعض المؤرخين قتلهم بخمسين ألف) ؛ ويقول المسير كوندى : « إن العرب بالرغم من المقاومة التي لاقوها أمام الخندق ، وبالرغم من هزيمة بعض جيوشهم استمروا على الهجوم واخترقوا الخنادق فوق جثث زملائهم

إذ انقضوا على المسيحيين الذين تراجعوا أمامهم وفروا هاربين إلى المدينة يطاردونهم المسلمون ؛ وأصبح ذلك المكان ميدانا مملوءا بالأشلاء ، ولم ينج من هذا المصير المروع سوى النساء والأطفال » ، وتعرف هذه الموقعة التي نشبت داخل أبواب زامورا بموقعة الخندق ؛ غير أن دوزى يروى رواية أخرى تختلف اختلافا بينا عن الرواية العربية ، وهو يستقى معلوماته من التواريخ الأسبانية المسيحية ، فيقول : « إن جيش المسلمين هوجم من قبل الأعداء بظاهر قرية الخندق على مقربة من سلمنقة ، فانهزم العرب وانكشف جناحهم ، فهجم عليهم الليونيون والنافاريون على القلب الذي كان مؤلفاً من جنود الخليفة ، فخارب الصقالية باستبسال عظيم حتى كادوا أن يفنوا على آخرهم » .

غير أن الهزيمة التي لحقت بالخليفة داخل أسوار زامورا لم تثبط من عزيمته أو تقلل من نشاطه ، فجهز في الحال جيشاً آخر وسار به على الجلالة والبشكنسيين فانتقم منهم شر انتقام . وفي تشرين الثاني سنة ٩٤٠ م ألحق حاكم بطليوس برامير هزيمة منكرة وأعمل السيوف والنار في بلاده ، وظلت هذه الحملات متصلة الحلقات بضع سنوات حتى ضعفت معنوية القبائل . وفي سنة ٩٥٥ م طلب أردونو الثالث ابن رامير المتعصب وخليفته الصالح ، فأجيب إلى ذلك ، وعقدت معاهدة سلم بينه وبين الخليفة بشروط شريفة للطرفين اعترف فيها زعيم الجلالة بسططان الخليفة ، وأن يتجنب أى عمل عدائى أو التآمر مع مسيحي الأندلس أو أى دولة أجنبية أخرى ، وأن يهدم فى خلال مدة معينة حصونه الرئيسية للقريبة من شعور المسلمين ، وألا يغزو الأراضي الإسلامية ، وتعهد الخليفة من جهته بأن يحترم استقلال نافارا وإيرون ، وأن يكتفى منه بالجزية والطاعة ، وبنتيجة هذه المعاهدة أعيدت الحدود الإسلامية إلى الأبرة وأصبحت تمتد من طرطوشة على نهر أبرة قرب مصبه ببحر الروم ، وهى تمتد من أشهر المعاقل ، ثم تمتد إلى حصن أفراغة ثم إلى لريدة على ساحل المحيط الأطلنطيق .

الحروب في
أفريقيا

وبينما كان عبد الرحمن منهمكا في محاربة قبائل الحدود حدثت بالمغرب الأقصى حوادث اضطرت به إلى دخول ميدان القتال هناك ، فلأجل أن يصون بلاده من الدعوة الفاطمية ، ويحول دون انتشار نفوذ للمهدي في المغرب الأقصى شرع منذ سنة ٩١٧ م يسدى المساعدات اللازمة للإمارات الصغيرة في غربي أفريقيا ، ولم يكن يخافه أدنى شك في أن المهدي كان يكاتب الثائر عمر بن حفصون ، وقد لاقى الخليفة نجاحا في بادئ الأمر ؛ ولكن المرز عندما اعتلى عرش الخلافة الفاطمية سير جيشا على القوات الأندلسية الصغيرة التي كانت باقية في أفريقيا بعد أن تركها معظم الجيش الأندلسي للاشتراك في محاربة القبائل المسيحية وطردها بسهولة من أفريقيا ، ولم يبق في يد خليفة الأندلس غير ميناء كيوتا ، وهي مفتاح القسم الشمالي من المغرب الأقصى (موريتانيا) . وبعد عقد معاهدة سلم مع أردونو الثالث رأى الخليفة المنهوك القوى أنه أصبح في وضع يستطيع معه توجيه جهوده الكاملة شطر أفريقيا ، غير أن وفاة أردونو جعلته يقطع عن غزو الدولة الفاطمية ، وذلك أن سانكو الذي خلف أردونو في إمارة جليقية وليون ، رفض أن يتقيد بالمعاهدة التي وقعا أخوه ، فاضطر الخليفة إلى أن يستخدم الجيش ضد العشار الثائرة بعد أن كان قد اتخذ عدته للزحف به على أفريقيا ، فهدم إلى قائده الشجاع أحمد بن علاء حاكم طليطلة بقيادة الجيش ، وفي شهر تموز سنة ٩٥٧ م نال نصرا باهرا على الجلائقة واليونيين .

إبعاد سانكو

وكان سانكو قد سلك مسلكا سينا مع رعيته فثاروا عليه وساعدهم فرديناند ملك قشتالة فأبعدوه من مملكته ، فالتجأ إلى جدته الملكة طوطه في بملونة ، وفي تلك الأثناء انتخب اليونانيون ابن عمه أردونو ملكا عليهم ، ولما كانت طوطه نفسها عاجزة عن مساعدة حفيدها فقد استنجدت بالخليفة وتوجه كلاهما إلى قرطبة حيث استقبلا استقبالا باهرا ، وأجابهما عبد الرحمن إلى طلبهما وسير جيشا مع سانكو لاسترداد إمارته فهزم أردونو الذي اعتصم بالجبال ، وفي شهر

الاستبعاد
بالخليفة

نيسان سنة ٩٥٩ م أعيدت لسانكو سلطته ، وأصبحت بذلك ليون وقشتالة وجليقية ونافارا خاضعة لنفوذ خليفة قرطبة .

ولكن هذا الخليفة العظيم الشأن لم يتمتع بانتصاره إلا سنتين ، إذ أنه توفي في ١٦ تشرين الأول سنة ٩٦١ م وعمره ٧٣ سنة بعد أن حكم البلاد نصف قرن كامل .

وفاة عبد الرحمن
الناصر
٣٥٠ هـ (٩٦١ م)
تشرين الأول
(٩٦١ م)

كان عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك بني أمية بالأندلس دون منازع ، إذ اعتلى عرش مملكة تعصف بها رياح الفوضى والفتن وتفيض بالبغضاء والحسد بين الأمراء ، حتى غدت فريسة للفوضى والحروب الأهلية وظلت معرضة لغزو مسيحي الشمال المستمر ، ولكنه بالرغم من الصعوبات العديدة أنقذ الأندلس وجعلها أقوى وأعظم من ذي قبل ، فساد الأمن وازدهرت البلاد في سائر أنحاء الإمبراطورية ، وبلغ نظام الشرطة حداً يستطیع معه الأجنبي أو التاجر السفر في أى طريق مهما كان وعمر المسالك دون خوف أو وجل ؛ وكان رخص تكاليف الحياة وانتشار عادة ركوب الخيل حتى من قبل أفقر الطبقات ، وطلاوة ملابس الفلاحين ، براهين ساطعة على رفاهية الشعب ؛ كما كان ازدهار الحقل وينوع الثمار وكثرة الأشجار الوارفة آية من آيات اعتناء الحكومة بالفلاحة ، أما الأعمال المائية الفخمة ونظام الري النفى البديع الذى أخصب الأراضى القاحلة فكانت تثير إعجاب السائح فى تلك البلاد . ولسكن الزراعة لم تكن وحدها هى كل ما اعتنى به الناصر ، إذ نالت التجارة والصناعة والعلوم والفنون أيضاً على يديه أكبر تشجيع ، وكان لكل من قرطبة والمرية وأشبيلية وبعض المدن الأخرى شهرة فى عدة صناعات أغنت السكان وزادت فى ثروة البلاد . وقد نمت تجارة أسبانيا نموا عظيما حتى كانت الرسوم الجركية تؤلف أكبر جزء من إيرادات الدولة التى بلغت فى عهد الناصر زهاء ١٢ مليون دينار ؛ وكانت الغنائم والأفياء التى يستولى عليها جيش الناصر هائلة جدا ، كما أنه بنى أسطولا نافس به

الفاطميين في النفوذ على بحر الروم وأسس جيشاً منظماً يقول فيه دوزى « ولله كان أحسن جيش في العالم » ساعده على التسيطر على مسيحي الشمال ؛ وكان ما أثار هيئته في نفوس ملوك النصرانية وأسرانها أن توالى عليه وفودهم وسفراؤهم^(١) في طلب المهادنة والسلام والتحالف ، ووفدت عليه رسل ملك ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ، قال دوزى : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكننا نجد إذا ما درسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة أكثر مما يثيرها المصنوع ، وهذه المبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر كما تدعو إليه في أسمى الأمور . إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذي استأثر بمقاليد الحكم وأسس وحدة الأمة ووحدة السلطة ممّا وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى مجلس استشارته رجالاً من كل دين لأجدر بأن يعتبر قريناً للملك المصر الحديث لا خليفة من خلفاء القرون الوسطى » ؛ غير أن الرواية العربية تصف لنا عبد الرحمن ضعيفاً متقلباً^(٢) .

الحكم الثانى
الملقب
بالمستنصر باقة

ولما توفى الناصر خلفه ابنه الحكم الملقب بالمستنصر بالله ، وكان قد اشترك قبل وفاة والده ببضع سنوات في إدارة شؤون الدولة ، ولهذا ذاعت شهرته في البلاد النائية بالعدل والحكمة ، وبدلاً من أن يحترم زعماء ليون وناظرا وفاة الخليفة

(١) عرفت سنة ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) بسنة وفود ملوك النصرانية على قرطبة ، فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة ، ورسل الملك أوتو الكبير ، ورسل ملك فرنسا ، وأمير آخر في ماوراء جبال البرنيه يسمى أوكو (هو كوكو) .

(٢) عرف عن هذا الملك أنه قال ذات يوم : إنه في حكمه الطويل لم يحرم من السعادة إلا أربعة عشر يوماً فقط ، وذلك أن ابنه اشترك مع الآخرين لحكم عليه بالقتل . ويقال إن أخاه وولى العهد سجد أمام والده يذرف الدمع متوسلاً إليه أن يبدل عن قرار المجلس ، فأجاب : إنى كوالد سأذرف الدمع سخيّاً طوال حياتى ، ولكنى ملك أيضاً ، فإذا تدخلت في هذه القضية تمزقت أوصال الإمبراطورية . وهكذا نفذ في الابن حكم الإعدام ، ومنذ ذلك اليوم لم يشاهد عبد الرحمن يبتسم قط .

العظيم الذي أسدى لها تلك الخدمات الجليلة ويعتبرا موته خسارة لا تعوض ،
اتهمزا تلك السانحة للتملص من شروط المعاهدات والتخلص من سيادة العرب .
وقد ظن سانكو وكارسيا أن « الحكم » الذي كان معروفا بميله للعلم وحبهِ
للسلم قد لا يصر على تنفيذ شروط المعاهدات ، وأنه إذا نشبت بينه وبينهم حرب
فلا ينجح فيها نجاح والده ، فأتخذا خطة عدائية دات على الخيانة والغدر فتماهلا في
هدم الحصون الواقعة على الحدود وتذرعا بكل وسيلة ، كما أن فرديناند كوزاليس
كونت قسطنطية شرع في ذلك الحين في غزوه ؛ وقد اتخذ الزعماء الناكرو والجيل
في فهم حقيقة أخلاق الملك الجديد ، إذ لم يكذب يشترك معهم في مناوشة صغيرة
حتى أثبت لهم أن العالم يستطيع أن يكون جندياً ماهراً وأن يتقن الضرب
بالسيف كما يتقن الكتابة بالقلم ، فقاد الحكم أول حملة على كوزاليس وألحق
بالتأثر خسائر فادحة اضطرت به إلى الفرار خارج الحدود . وعند عودته منتصراً
على كونت قسطنطية وفد عليه أردونو الثالث الذي كان قد عزله سانكو بمساعدة
الخليفة السابق ، فاستقبله الحكم استقبالا عظيماً ورضى بمخالفته على أن يعيش
بسلام مع المسلمين ، وأن يسلم ابنه كارسيا رهينة وأن يقاطع الأمير التأثير
كوزاليس ، ووضع الخليفة عندئذ جيشاً بقيادة القائد غالب تحت تصرفه لطرد
سانكو من ليون وجيلقية وليقيم أردونو في مكانه ، ولما كان مركز سانكو
متزعزعاً فقد خشي تلك الاستعدادات وأرسل إلى قرطبة وفداً من كبار
الأكليروس وأشرف إمارته يتوسل إلى الخليفة أن يعفو عنه ، ويعد الخليفة بالتمسك
بالمعاهدات وعدم نكث شروطها ، ولكن لما توفي أردونو بعد بضعة أشهر جنح
إلى التمرد ثانية معتمداً على مساعدة زعيم نافارا وقسطنطية وكتالونيا ، رافضاً التمسك
بأحكام المعاهدة ، الأمر الذي اضطر الحكم على أن يعلن الحرب على القبائل
المسيحية ، وتفرغ في بادئ الأمر إلى محاربة قسطنطية ، وفتح عنوة سان اشتيبيان
واضطر كوزاليس على طلب الخضوع فأجاب طلبه ، ولكنه لم يلبث قليلاً حتى

نكث العهد ، فبعث « الحكم » بجيشه وعلى رأسه غالب إلى ليون ، فسار عن طريق مدينة سالم حتى أتى إلى موضع يسمى أستا في منطقة سانكو حيث قابلته قوة ضخمة من الجلالة فأوقع بهم واكتسح جليقية . وبعد أن عقد الحناصر مع يحيى بن محمد حاكم سرقوسة غزاة بلاد البشكنس التي كان زعيمها قد نكث العهد ، وهزم زعيم نافارا واستولى على أخطر مدنه ، « ووقع قلعة الحرة في أيدي غالب في منطقة البشكنس كانت تعد من أخطر الفتوحات » ، فأعاد الحكم تشييد قلاعها وأقام فيها وفي عدد غيرها من المواقع في نافارا وجليقية وقسطيلة وألبا الحاميات ؛ وبالاختصار أجبر الحكم — مع ما عرف عنه من كره الحرب ودخوله الحرب على غير رغبته — الأعداء في داخل بلاده أن يطلبوا الصلح ، فقدم سانكو زعيم ليون خضوعه سنة ٦٦٩ م ، وحذا حذوه أمراء كتالونيا وباريل ومونيرا الذين منوا بهزائم منكرة ، وطلبوا تجديد المعاهدات ، وتعهدوا بتخريب القلاع والحصون التي على الحدود الإسلامية والتي كثيراً ما اعتصم بها قطاع الطرق ، وتعهدوا أيضاً أن يمتنعوا عن مساعدة بني جلدتهم في الحروب مع العرب وأن يحولوا دون اتحاد العشائر والأمم المسيحية على المسلمين ؛ فأرسل كارسيا زعيم البشكنس سفراء تصحبه هيئة من أشرف بلاطه وأساقفته لطلب الصلح ، ولم يسمح لهم الحكم بمقابلته إلا بعد أن انتصر غالب انتصاراً رائماً على أهل نافارا فنحنهم نفس الشروط التي منحها لهؤلاء ؛ وفي ذلك الحين وفدت أم أحد الأمراء الأقوياء المسمى بلوذريق بن بلاكاش التي تقع ولايته على تخوم جليقية تطلب الصلح بالنيابة عن ابنها ، فأحسن الخليفة استقبالها وغمرها بالعطايا وأجابها إلى سؤالها ، وبوفاة كونت قسطيلة الثائر سنة ٩٧٠ م استتب السلم في تلك الولاية .

٨٣٦٢
تصريح الأول
م ٩٧٢
إرسال حملة
إلى المغرب

وبعد سنتين من ذلك التاريخ أرسل الحكم حملة إلى المغرب الأقصى والأوسط لقطع دابر الحركة الفاطمية التي أخذت شكيمتها تقوى في تلك البلاد ، ويلوح أن غالب القائد قد نجح في إعادة نفوذ السلطة الأموية في أفريقيا الغربية ،

ونبذت قبائل زناتة ومغراوة ومكناسة طاعة الخليفة الفاطمي في القاهرة، وقرأوا الخطبة باسم الحكم على المنابر، ووفد كثير من أمراء العلويين الذين سكنوا منذ مدة طويلة في فاس على أسبانيا حيث أحسنوا وفادتهم، ونقل الأدارسة إلى منطقة الريف ومنها إلى قرطبة، ولكنه عاد ونفى بعضاً منهم إلى الإسكندرية. ويقول ابن خلدون: «في عهد الحكم زهت الآداب والعلوم»، وكان الأمير نفسه إماماً لتلك النهضة، فافتتح معاهد العلم والتربية، وأنشأ المكاتب العامة في المدن والعواصم، وكان له شغف عظيم باقتناء الكتب وإرسال الوفود في طلبها من جميع الأقطار، ولا سيما بغداد والقاهرة ودمشق مهود الآداب والعلوم العربية في المشرق، وكان يبذل من أجل ذلك أموالاً طائلة حتى اجتمع له منها ما لم يجتمع لدى غيره من الخلفاء أو أمراء المسلمين في عهده، وعين موظفاً لإدارة خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان التي بلغ عدد فهارسها فقط ٤٤ مجلداً^(١)؛ وقد حول «الحكم» بلاد الأندلس إلى سوق يرد إليها إنتاج المالك الأدبي، كذلك كان يبذل الأموال الطائلة للحصول على النسخة الأولى من الكتب، ويقال إن أبا الفرج الأصفهاني أرسل إليه نسخة من كتابه الموسوم بالأغاني قبل ظهوره في العراق فاشتراه منه بألف دينار، ويقال إنه أفرد في قصره عدة غرف لأعمال النسخ والتجليد واستخدم لها أمهر النساخين؛ ولم يكن محباً لجمع الكتب فحسب بل كان أيضاً عالماً مولماً بالدرس، فلم يكن ليكتفي بالقراءة السطحية، إذ قلما نجد كتاباً في خزائنه دون أن يعلق على هوامشه بالملاحظات السديدة؛ وكان مولماً بتشجيع العلماء والمصنفين والفلاسفة، فلجأ إليه العلماء والباحثون والفلاسفة فأكرم مشاهيرهم وحماهم من اضطهاد المتعصبين، كذلك زهت في عهده كافة فروع العلم والآداب. وكان أسلافه قد أسسوا المدارس الأولية وجسبوا عليها الأوقاف «فكان كل فرد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة، بينما كانت أوربا المسيحية

(١) قدر بعض المؤرخين مكتبة الحكم بأربع مائة ألف مجلد.

تتخبط في دياجير الجهل إذا استثنينا منهم رجال الدين ، وعلى الجملة كان أفراد الطبقة الراقية في جهل عام وظلام دامس ^(١) . ولما كان « الحكم » من المجددين والآخذين بناصر العلم والعلماء ، فقد أسس في العاصمة وحدها سبعا وعشرين مدرسة لتعليم أولاد الفقراء ، وكانت الدولة تجهزم جميعا بالكتب مجانا ، ولا تنسى أن جامعة قرطبة ^(٢) أخذت مكاتها السامية بين أشهر جامعات العالم ، وبخاصة الأزهر الشريف في القاهرة والنظامية في بغداد .

وتوفي هذا الأمير الفاضل بقصره بقرطبة في تشرين الأول سنة ٩٧٦ ، وفاة الحكم وبموته انتهت عظمة الدولة الأموية في أسبانيا .

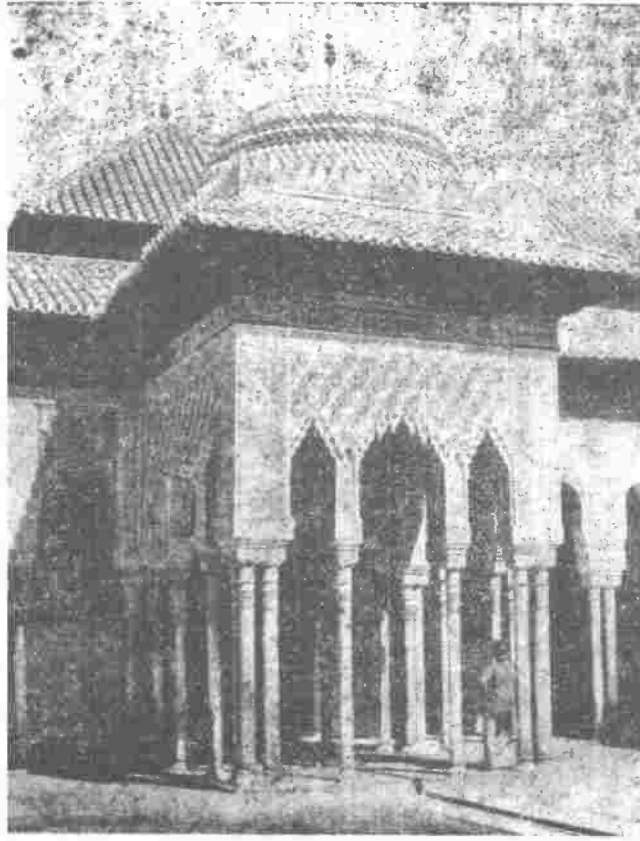
كانت كردوفا أو كما يسميها العرب « قرطبة » واقعه في سهل خصب واسع على سفح جبال سيرا مورينا تؤلف مدرجا بشكل نصف مستدير على الشاطئ. الأيمن لنهر الوادي الكبير ، وقد تفنن ملوك العرب في تجميلها بالأبنية الفخمة الشاحخة ، غير أنه لم يبدأ بنظام تجميلها على أصول هندسية بارعة ، والتفنن في إتقانها بما يعجز عن فهمه مهندسو هذا العصر ، إلا في عهد عبد الرحمن الداخل ، وكان أول ما قام به « الحكم » عند توليه إقامة القناة التي تحمل الماء العذب من جبل قرطبة إلى المدينة ، وقد واصل خلفاؤه زيادة عدد تلك القنوات حتى فاق نظام جاب ماء الشرب وتوزيعه في غيره من المدن ، فأجروا المياه العذبة في قنوات نحاسية في كل ساحة من ساحات البلد ، وكانت الأحواض والبحاريج مصنوعة من المرمر المنقوش أو من النحاس ، كما كانت في بعض القصور تصنع من الذهب الإبريز أو الفضة . وكان العرب مغرمين برؤية المياه تجري على مختلف الأشكال والأنواع ولهذا أنشئت حول القصور حدائق غناء ورياض أنيقة تجري من تحتها الجداول

(١) دوزي .

(٢) ومن أساتذتها إذ ذاك ابن الفوطية إمام النحو ، والثعالبي أستاذ الآداب ، وصاحب الآمالى الكتاب المشهور في الأدب العربي ، وأبو بكر بن معاوية القرشي النابغة في علم الحديث .
(المغرب)

العذبة . وفى سنة ٩٤٠ شيد « عبد الرحمن الثالث » قناة عظيمة فاقت غيرها فى الصنع والإبداع ، تجرى فيها المياه العذبة من الجبل المجاور إلى المدينة على حنايا معقودة ينساب ماؤها إلى بحيرة عظيمة ، قد أقيم عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنع شديد الروعة يجوز الماء إلى مؤخره فيدفعه إلى البحيرة ، وبجانبه تمثال لإنسان هائل يصب الماء على الأسد ، ومن ثم يتحول الماء الزائد إلى النهر بعد أن تنال المدينة كفايتها . وكان عبد الرحمن الأول قد بنى حديقة الرصافة المشهورة التى أصبحت أنموذجاً فى كافة ممالك أوروبا المتعدنة ، إذ كانت زاخرة بالزهور النادرة والأشجار الوارفة التى كانت تجلب إليها من سائر أنحاء العالم ، ومما زاد فى رونق تلك الحديقة الغناء القصر المنيف الذى كان يطل عليها ، غير أن الخليفة لم يكتف بتهيئة أسباب الراحة لنفسه فحسب ، بل شيد أيضاً الجوامع والحمامات ، وأقام الجسور والقلاع فى كل ولاية من مملكته . ويقال إنه شرع فى بناء المسجد الكبير بقرطبة الذى أصبح آية من آيات الفن والإتقان فى الأندلس ، وأتم بناءه ابنه من بعده ؛ وليس أدل على عظمة قرطبة ونخامتها فى تلك الأيام من قول أحد مؤلفي ذلك العصر : « بأن المسافر يستطيع أن يسير عشرة أميال فى طريقها على ضوء المصابيح » ، ويقول كاتب آخر : « إن المدينة امتدت ٢٤ ميلاً طولاً و ٦ أميال عرضاً ، وكانت كل هذه المساحة زاخرة بالقصور والجوامع والمنازل والحداثق على ضفاف الوادى الكبير ، وكانت ضواحيها مقسمة إلى ٢٧ حياً يسكنها أفراد الطبقة الغنية ورجال الدولة ، وكان لكل حى جوامعه وأسواقه وحماماته .

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير الذى بناه الداخل وأتمه « هشام الأول » وجعله « الناصر » ، فكان بناءً فخماً محلى بالذهب والفضة ومزيناً بأرقى ذوق وأتم إتقان . وكانت قرطبة تحوى على مكاتب عديدة . ولم يأل الأغنياء برغم جهلهم جهداً فى جمع الكتب بغية أن يذاع ذكرهم ويشاع خبرهم . ومن القصور الفخمة



سور السباع في قصر الحمراء بقرطبة

الزهراء
في قرطبة « الزهراء » ، بدأ بإنشائها الخليفة الناصر على أربعة أميال من العاصمة فكانت أعجوبة الزمان ، وهي مصنوعة كلها من المرص الخالص — الأبيض والأخضر والوردي والمجوع — الذي حمل إلى قرطبة من سائر أنحاء العالم . وكان المجلس الشرقي المعروف (بالمؤنس) منصوباً فيه حوض منقوش بتماثيل الحيوانات المصنوعة من الذهب والمرصعة بالدر النفيس يجرى الماء من أفواهها^(١)

(١) ح ١ في تفحيط الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وان حلسكان ٢٩ ج ٢ ما يلي :
« وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جلتها حوض منقوش بتماثيل الإنسان حيء من القسطنطينية ، ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس =

باستمرار . وكان إيوان الاستقبال قطعة نادرة من صناعة المرمر والذهب المرصع بالجواهر ؛ ويقول المؤرخون المعاصرون : « إن القلم ليعجز عن وصف دقة الإتقان وجمال التناسب وبهاء الزخرف ، سواء أكان في المرمر المنقوش أم في الذهب المصهور ، وتلك العواميد التي تبدو كأنها صبت في القوالب فخرجت آية في الإتقان والصقل ؛ ثم النقوش التي تضاهي ألوان التعاريش ، والبحيرات الواسعة والنافورات المزدانة بالصور البديعة » .

وألقى بالحدائق حظائر للوحوش الكاسرة فسيحة البناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، وكان يملو بابها الأوسط تمثال الملكة التي سميت المدينة باسمها ؛ وكان بقرب قصر الزهراء وحدائقه الناضرة عدة أبنية خصصت لحاشية الخليفة واختط بقربها مدينة الزهراء^(١) .

ضاعت قرطبة في عهد ملوكها الأمويين العظام بجوامعها الثلاثة الآلاف والثمانمائة ، وقصورها الستين ألفاً ، ومنازلها المائتي ألف ، وحوافيتها الثمانين ألفاً وفنادقها ، مدينة بغداد في اتساعها وعظمتها ، وقد طار صيتها إلى أقاصى البلاد الألمانية فدعتها الراهبة السكسونية هورسويتا^(٢) « بزينة العالم » ، وقد بلغ عدد سكان قرطبة في أيام عظمتها مليون نسمة في حين أنها لا تزيد في الوقت الحاضر عن ٣٥ ألف .

== الفرقى المروف بالمؤنس ، وجمل عايه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة ، وشامين ، وطاووس ، ودجاجة ، وديك ، وحدأة ، ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجواهر يجرى الماء من أفواهها . (المغرب)

(١) كان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفلعة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ١٥٠٠ دابة ، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهم والثلاثة . (المغرب)

(٢) يقول دوزى إنها كاتبة اشتهرت في النصف الأخير من القرن العاشر بأشعارها وروايتها باللغة اللاتينية .

غير أن قرطبة لم تكن مركز الثقافة والعلم والصناعة والتجارة لحسب بل كانت أيضاً الوطن الذى ازدهرت فيه الفروسية التى تعد من خصائص الخلق العربى ، غير أنها لم تحدد قواعدها وتعين أنظمتها وتلعب مبادئها إلا فى قرطبة فى عهد الناصر وابنه^(١) ، فى ذلك العهد أخذت تتطور مبادئ الفروسية من تلقاء نفسها مقترنة بالنخوة واحترام الجنس اللطيف . ويقول كاتب مبدع آخر إن الفروسية بأصولها التى انتشرت فى الأمم المسيحية فى الغرب كانت قد زهت بين المسلمين فى عهد الناصر والحكم والمنصور ، فكان الفرسان الأجانب يفدون مطمئنين إلى بلاد الأندلس لمبارزة الفرسان المسلمين ، كما بطلت المادة القديمة التى كان يتبعها الفرسان عند دخول حومة الوغى والمناداة بأسماء أخواتهم أو حبيباتهم وأخذ الفارس يدخل الحلبة لابساً على صدره أو خوذته شيئاً من ذكرى محبوبته وأخذت السيدة المسلمة تؤلف عنصراً بارزاً بين النظارة فى مشاهدة المبارزة التى كانت تقام فى العاصمة ، وكان حضورها فى تلك الاحتفالات العامة يكسب المنظر هيبة ووقاراً ؛ وأدى الاختلاط الشريف إلى رقة العاطفة وتصفية الأخلاق الأمر الذى لا يستطيع الهندى المسلم فى الوقت الحاضر أن يدرك مداه . وقد بلغ العرب إلى آخر عهدهم فى أسبانيا أرفع درجات النخوة^(٢) ورقة الشمايل ، وكانت الصفات العشر التى يجب أن يتحلى بها الفارس هى : التقوى والشجاعة ورقة الشمايل والبسالة ونظم الشعر والبلاغة والمهارة فى ركوب الخيل واستعمال السيف والرمح والنشاب .

(١) رينو .

(٢) لما حاصر المسلمون الملوك الفونس السابعة فى قلعة أزيكا سنة ١١٣٩ عنت الملوك الفرسان المسلمين على ما أبدوه من الحشوة فى مهاجمتهم قلعة تحميها امرأة فتقبلوا توبيخها بصدور رجة وطلبوا إليها أن تطلع عليهم من شرفة قصرها ، وعند ما نبت لهم حجة ادعائها أدوا لها واجب التحية ورفضوا الحصار .